

من بيرزيت إلى بيروت

الطلاب الفلسطينيين الذين تظاهروا في بيرزيت ضد زيارة رئيس الوزراء الفرنسي، ورشقوه بالحجارة، بعد أن أصر على نعت المقاومة الوطنية اللبنانية بـ «الإرهاب»، يستحقون أن يكونوا «رجال هذا العام». فواقحة جوسبان في عقر دار الانتفاضة، واستخفافه بوحدة الشعور اللبناني - الفلسطيني عقب الاعتداء الإسرائيلي على منشآت لبنان الكهربائية والمدنية، ما كان ليكافئهما إلا حَجْرٌ يُنْزَلُ على أم رأسه.

ترى، أيليق بنا أن نتحدث بهذا المنطق غير «الثقافي»... وفي افتتاحية عدد يتناول على امتداد سبعين صفحة موضوع «حوار الحضارات» بالتحديد؟!

ولكن مَنْ قال - في المقابل - إن الثقافة نقيضُ الحجر؟ وَمَنْ قال إن حوار الحضارات يمكن أن يتخطى كرامة الشعوب وحرمتهم وحقوقهم المشروع في مقاومة المحتل؟

«من بيرزيت لبيروت، شعب واحد لا يموت». هكذا هتَفَ طلابُ جامعة بيرزيت إعلاناً لتضامنهم مع إخوانهم اللبنانيين... الذين كانوا - بدورهم - يتظاهرون ضد العدوان الإسرائيلي، وضد سفير الولايات المتحدة الأميركية الذي برز هذا العدوان، وضد تصريحات جوسبان. وفي عواصم أخرى كان الطلاب العرب ينزلون إلى الشوارع حاملين قبضاتهم المرفوعة وحناجرهم المبحوحة، ليقولوا إن زمن الطلاب أت، وإنهم لن يسمحوا للعدو أن يستفرد زملاءهم في أماكن أخرى من هذا الجسد العربي الواحد برغم ههلهته.

وأما الوعي العربي عامةً فما زال «مصدوماً»: مصدوماً من تهديد وزير خارجية العدو دايفيد ليفي بإحراق تراب لبنان وقتل أطفاله، وكان سياسة الصهيونية مخالفة في الكلام وفي التطبيق لما هُدِّ به... ومصدوماً من «واقحة» سفير الولايات المتحدة في لبنان المستر دايفيد ساترفيلد، وكان السلاح الذي دُمِّرَتْ به منشآت لبنان وقراه وناسه ليس سلاحاً أميركياً. وبين دايفيد تل أبيب، ودايفيد بيروت، «صُدم» الوعي العربي أيضاً بحملة الاعتقالات التي شنَّتها سلطة الحكم الذاتي الفلسطيني على الطلاب المنتفضين، وكان هذه السلطة لم تكن هي التي تحاول أن تُبَدِّد الحلم الفلسطيني ووقعت وثيقة إنهاء «فكرة فلسطين». «صُدم» أخيراً، بموقف فرنسا، وكأنها لم تحتل أراضي عربية، ولم تقتل، ولم تشردَّ عرباً؛ بل كأن «دم الثوار لا تعرفه فرنسا»!

ثرى متى يبقى وعينا مصدوماً؟ فمنذ هزيمة ١٩٦٧ ونحن نتلقى الصدمات: نفاجاً بأن العدو جاء من غير الجهة التي انتظرناه عندها، ونفاجاً بأن جيوشنا هُزمت خلال ستة أيام، وكان الهزيمة جاءت من خارج واقعا المحاصر بالخبايا والكبت والرشوة والفساد والفهلوة والأبويات والطائفيات والمذهبيات والشلييات والفئويات وكل «إيأت» التي قد يتفكَّق عنها معجمنا. ثم نفاجاً بالسادات بكُسر «الحاصر النفسي» مع العدو، وكأنه لم يكن قادماً من خيمة كيلو ١٠١. ونفاجاً بالرؤساء و«القادة» العرب يصافحون قادة العدو، وكان هذه المصافحة لم تسبقها عشرات المصافحات واللقاءات والقبلات على امتداد السنوات التي سبقتها. ونفاجاً بهزيمة الجيش العراقي، وكأننا كنا نصدِّق كل الدعايات التي أطلقها النظام عن قوته التي لا تقهرها ترسانات واشنطن وتل أبيب وثمان وعشرين دولة أخرى.

ولأننا «تعوَّدنا» أن نُصَدِّم، وأن نُحْدَل، وأن نُحْبَط، أفلا يُمكن أن نكون قد خَلَقْنَا من ثورة الطلاب الجديدة - التي اكتسحت شوارع بيروت والضفة وغزة والقاهرة والإسكندرية ودمشق... - وهماً جديداً قد يُصيبنا في المستقبل (لا سمح الله) بصدمة جديدة؟

ومناسبة هذا التخوُّف ليست اعتباطية، ولا حجباً بجُذد الذات، ولا إغراقاً في التشاؤم. بل تنبعث من مشاهدات الصحفيين، ومشاهداتنا نحن، للعيوب التي تُخَرِّص صفوف الحركة الطلابية: من ذليلة هذه الحركة للأحزاب، إلى طرح شعارات عنصرية وشوفينية وجاهلة ضد الغرب (عامة) واليهود (عامة) والأميركيين والفرنسيين (عامة) تشكل ردة فعل عصابية مازومة ضد واقع الهيمنة والاستعلاء الإمبريالي. (أرايتم؟ ها نحن مجدداً في قلب الجدل الذي يتناول محورنا: «الحضارات والثقافات - بين الحوار والصراع»!). وإذا بتظاهرات الطلاب التي يتوسم فيها العرب الخلاص من مآزق السياسات الرسمية والحزبية تتحول أحياناً صورة مصغرة عن هذه المآزق!

وهنا، هنا بالتحديد، واجب الطلاب الواعين، وواجب المثقفين الذين كانوا طلاباً فيما مضى ورأوا كيف جُيِّرت مشروعات الطلاب السابقة في خدمة الطوائف والشلل والزعامات التقليدية لاحقاً. وهنا، هنا بالتحديد، تقع على عاتق طلابنا الواعين وصحفيينا ومثقفينا مسؤولية عظيمة في أن يُعْمَلُوا سلاح النقد والخبرة، فيتصدوا لكل النزعات الفئوية والعرقية والشوفينية والاستعلائية (وإن بسبب من عقدة دونية!)، ويوجِّهوا دفة ثورتنا الجديدة بعيداً عن أية «صدمات» محتملة في المستقبل.

إن طريق الانقلاب على الهزيمة، وعلى الصدمات المتكررة، يبدأ من عدة مداخل. وثورَة الطلاب الواعية، والصادقة، والديموقراطية، والموحدة على تنوعها، هي واحدٌ من أهم هذه المداخل، ولا بد أن تشكل في الآتي القريب، لوعينا، صدمة... إيجابية هذه المرة!

الأداب